Pieter Sjoerd van Koningsveld
and Gerard Albert Wiegers,
The Lead Books of the Sacromonte and the Parchment of the Torre Turpiana: Granada, 1588–1606: General Introduction, Critical Edition, and Translation

Leyde, Boston, Brill,
2024,598 p.,
ISBN : 978-90-04-68085-2 (hardback),
ISBN 978-90-04-68527-7 (e-book)
ISSN :0169-8834,

Mots-clés : parchemin de la Tour Turpiana, al-Andalus, Grenade

Keywords: Torre Turpiana Parchment, Al-Andalus, Granada

كلمات مفتاحية: رق برج توربيانا، الأندلس، غرناطة

يقدم هذا الكتاب دراسة مفصلة وترجمة إنجليزية لرق بردي ومجموعة من الألواح الصغيرة المصنوعة من الرصاص اكتُشفت في غرناطة في أواخر القرن السادس عشر، في برج المسجد الجامع القديم وفي كهوف تلة ڤالبارايسو (Valparaíso Hillock) التي سُميت منذ ذلك الحين بديرساكرومونتي (Sacromonte Abbey). تركز الدراسة على الأصول التاريخية المعقدة لهذه المجموعة، وتفسيراتها المتعددة، والسياق الاجتماعي والديني الذي نشأت فيه.

أصبحت هذه النصوص موضوع نقاشات حامية في أوروبا في وقتها بعد أن تم العثور على هذه الألواح الرصاصية بين عامي ١٥٨٨ و١٦٠٦. وقد أصبحت موضوع نقاش حاد وطويل في إسبانيا الهابسبورغية على وجه الخصوص، قبل أن تُنقل إلى الفاتيكان عام ١٦٤٣ ليُعاد تقييمها هناك. وفي عام ١٦٨٢، أدان البابا إنوسنت الحادي عشر (Innocent XI) هذه الألواح باعتبارها تحتوي على هرطقات إسلامية، وأُعلن أنه لا يجوز ذكرها إلا بغرض دحضها وإدانتها. ولأنها لم تكن ذات طبيعة أرثوذكسية، لم تتم إعادتها إلى غرناطة في تلك الفترة فبقيت محفوظة لقرون في روما، في أرشيف مجمع عقيدة الإيمان. وفي ١٧ يونيو ٢٠٠٠، أصدر الفاتيكان بيانًا عامًا بشأن مجموعة من الوثائق التي كانت بحوزته منذ قرون، والتي تضمنت رقًا ولوحين مكتوبين باللاتينية، واثنين وعشرين كتابًا رصاصيًا أغلبها مكتوبٌ باللغة العربية، كانت في الأصل مجلدة على شكل كتيبات صغيرة، ومحفوظة داخل صناديق حجرية. وأخيرًا، أصدر البابا يوحنا بولس الثاني والكاردينال جوزيف راتزينغر، الذي أصبح لاحقًا البابا بنديكتوس السادس عشر، قرارا سلّم الفاتيكان بموجبه الكتب إلى «مالكيها التاريخيين»، وذلك بنيّة إتاحتها بشكل غير مباشر للباحثين المتخصصين. وعلى هذا الأساس، قامت أبرشية غرناطة بتنظيم سلسلة من الفعاليات وأشرفت على إعداد إصدار مهم ومزود بالصور. وقد حظي رجوع الكتب الرصاصية إلى دير ساكرومونتي في غرناطة، بعد ما يقرب من أربعة قرون على اكتشافها، باهتمام أكاديمي واسع.

من الجدير بالذكر أنه بينما كان مؤلّفا هذه الكتاب يبحثان في الرق والكتب الرصاصية في ساكرومونتي، منحهما رئيس أساقفة غرناطة في عام ٢٠١٠ الإذن بإعداد طبعة نقدية وترجمة لها، والتي تتضمنها هذه الدراسة. وبعد أن تمكّنا من جمع نسخة أولى شبه مكتملة من هذا الإصدار في صيف ٢٠٢١، كانت ثمرة سنوات من البحث والسفر معًا إلى أرشيف ساكرومونتي وغيرها من الأرشيفات والمكتبات، لم يتمكنا من اللقاء مرة أخرى بسبب وفاة المؤلف الأول، شورد فان كونينغسڤيلد، المفاجئة في ٢٨ يوليو ٢٠٢١ عن عمر ناهز ٧٨ عامًا. وبعد ذلك، قرر المؤلف الثاني، خيرارد فيخرز، مواصلة العمل على النصوص ليكمل التحقيق، ونشره باعتباره بحثًا مشتركًا بينه وبين أستاذه وزميله المرحوم. ولهذا السبب، فقد واصل فيخرز الكتابة بصيغة الجمع قدر الإمكان.

يتبع المؤلفان في هذا الكتاب منهجية بحثية تاريخية دقيقة ومبنية على تحليل المصادر الأصلية، والنصوص اللاهوتية، والوثائق التاريخية، مما يتيح قراءة متوازنة تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الأدبية واللاهوتية والاجتماعية السياسية للنصوص. ويشير البحث إلى أن كتب الرصاص كانت نصوصًا مزورة لكنها استُخدمت كأداة دفاعية وتكتيكية في سياق ضغوط اجتماعية ودينية على المجتمع الموريسكي في فترة الاسترداد.

ويرى المؤلفان أن هذه النصوص تعد من آخر الإنتاجات الأدبية للموريسكيين من مسلمي الأندلس، الذين استمر العديد منهم في ممارسة شعائر الإسلام سرًا حتى طردهم من إسبانيا بين عامي ١٦٠٩ و١٦١٤. وبإذن من أبرشية غرناطة، يقدم الكتاب لأول مرة دراسةً وتحقيقًا وترجمةً إلى الإنجليزية وصورًا لجميع الألواح، مسلطا الضوء من جديد على الرسائل الدينية الشيقة لهذه النصوص الغامضة وعلى مؤلفيها.

تُظهر الدراسة بوضوح كيف هيمنت التفسيرات المسيحية على فهم كتب الرصاص، خاصة في ظل ضغط من رجال الكنيسة. وقد أدى هذا الأمر إلى صراعات عديدة بين المدافعين عن الطابع المسيحي للكتب وبين النقاد والعلماء المعروفين في إسبانيا آنذاك، مثل بنيتو آرياس مونتانو (Benito Arias Montano؛ ١٥٢٧–١٥٩٨)، پيدرو دي ڤالنسيا (Pedro de Valencia؛ ١٥٥٥–١٦٢٠) وماركوس دوبليو (Marcos Dobelio؛ حوالي ١٥٧٢–١٦٥٤)، وآخرين، والذين شككوا في هذه التفسيرات المسيحية.

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net

يركز الكتاب على الطبيعة الثنائية لكتب الرصاص؛ فهي ليست نصوصًا دينية فحسب بل هي أيضا أدوات سياسية واجتماعية تهدف إلى إدماج الموريسكيين في المجتمع المسيحي القديم مع الحفاظ على هويتهم الإسلامية. وتوضح النصوص كيف تم دمج بعض عناصر الخطاب المسيحي الإيبيري حول أصول غرناطة المسيحية بخطاب إسلامي يعزز مكانة عيسى ومريم بطريقة فريدة، حيث تُصوَّر مريم كنبيّة معصومة من الخطإ، وكذا تقديم بعض المسيحيين الأوائل من العرب كأشخاص متدينين وأتقياء.

يُبرز الكتاب كيف كانت كتب الرصاص بمثابة إرث ديني وتاريخي يقدم للموريسكيين المهددين بالطرد فرصة للحفاظ على وجودهم من خلال تأكيد نسب نبيل يزعم أنه يعود إلى العرب الذين اعتنقوا المسيحية بعد لقاءاتهم مع عيسى عليه السلام. وهكذا، فإن هذه الكتب كانت محاولة لتبرير وجود الموريسكيين، بما في ذلك ممارساتهم الدينية واستخدامهم للغة العربية، في مجتمع مسيحي صارم. كذلك، يُظهر الكتاب الأدوار الحاسمة التي لعبتها شخصيات تاريخية مثل خوان كالفو ناڤارو (Juan Calvo Navarro) الذي يعتقد المؤلفان أن اسمه العربي في الأصل كان يوسف قالبو الأندلسي، والذي كان حلقة وصل بين موريسكيي غرناطة والموريسكيين في المهجر بتونس، وساهم في نشر النصوص في مراحل متقدمة.

يرى المؤلفان أن الكتب الرصاصية والمخطوطة، رغم اختلاف زمن تأليفهما، تشكل مشروعًا فكريًا وعقديًا موحّدًا، يتأسس على رؤى موريسكية متمحورة حول القيامة والتصوف الإسلامي، ويتضمن إعادة تأويل توفيقية للنصوص الإسلامية والمسيحية. وتركز الوثائق على بعض النقاط الأساسية المتعلقة بالتأليف، ومنها مسألة وحدة الرؤية العقائدية والتركيز على آخر الزمان وظهور شخص يكشف الحقيقة النهائية للإنجيل. كما تُظهر فكرة التأليف بلغتين في أنواع أدبية متعددة، حيث تتألف المخطوطة من نبوءة مكتوبة بالإسبانية تنتمي إلى تقاليد الجَفْر الإيبيرية، مرفقة بتعليق شعري مكتوب بالعربية. هذا الأسلوب الهجين يعكس الواقع المزدوج للموريسكيين، ويكشف إسلاما باطنيا يختبئ تحت قشرة مسيحية مفروضة قسرًا. النقطة الثالثة تتعلق بالروابط مع العثمانيين، إذ يشير إليها في الوثائق وجود كلمات عثمانية مثل «خمرخان» (بيت الخمر) وكتابة مؤلف الألواح حرفَ القاف بنقطتين أحيانًا، مما يؤكد أنه كان على دراية بالشؤون العثمانية، إما مباشرة أو عن طريق وسطاء. وهناك نقطة أخرى متعلقة بتأثّر محتمل بالفكر المسيحي المضاد للتثليث؛ وهنا تشير الوثائق إلى ياكوبوس پاليولوجوس (Jacobus Palaeologus)، وهو لاهوتي مسيحي راديكالي رفض عقيدة التثليث، مما يرجح احتمال وجود تقاطع بين أفكار المؤلف والاتجاهات اللاهوتية الهرطقية في المسيحية. وهذا ينسجم مع تصوير الكتب الرصاصية لعيسى عليه السلام على أنه روح الله، لا ابن الله، وتأكيدها على حقيقة الإنجيل بوصفها التجلي النهائي للرسالة الإلهية.

يرى المؤلفان أن الوثائق المدروسة ليست سوى نتاج دائرة صغيرة من الموريسكيين الغرناطيين من ذوي الثقافة الدينية المتعددة، وأنهم سعوا عن طريقها إلى إنتاج خطاب نبوي وصوفي يعيد تأويل التاريخ الديني بشكل يناسب ظروفهم الروحية والسياسية. وكان من بين أهدافهم إضفاء الشرعية على الهوية الموريسكية، والدعوة إلى تجديد روحي. وقد راودهم الأمل في تلك الفترة في نجدة عثمانية أو تدخل إلهي يخلصّانهم من الظلم المسيحي. لذا يجمع خطابهم بين الغنوصية الإسلامية والنبوءة المسيحية، ورجاءِ نهاية الخضوع، بحيث تصبح حقيقة الإنجيل الذروة النهائية في الكشف الإلهي.

يعتقد المؤلفان أن الكتب الرصاصية كانت محاولة لتوضيح فكرة أن الموريسكيين الغرناطيين هم طليعة في آخر الزمان، يقدمون أنفسهم بوصفهم مسلمين وفي الوقت ذاته ورثةً للمسيحية الأصيلة الأولى في شبه الجزيرة الإيبيرية، مع رفض قوي لليهودية. وقد استُخدمت اللغة اللاتينية في أول كتابين رصاصيين من أجل التأثير على المسيحيين القدامى، وعلى الأرجح خصوصًا على رئيس الأساقفة: أولًا خوان ميندیث دي سالڤاتييرا (Juan Méndez de Salvatierra)، ولاحقًا پيدرو دي كاسترو (Pedro de Castro)، لإبراز الجوانب «المسيحية» في رسالة الكتب الرصاصية، مع المحافظة على دور اللغة العربية وعناصر محددة من الثقافة الدينية الموريسكية. وبهذه الطريقة، تُقدِّم هذه الكتب في جوهرها الموريسكيين بوصفهم جزءًا أصيلًا من سكان إسبانيا لا ينبغي طردهم، بل يجب قبولهم، وقبول عاداتهم الثقافية مثل استخدام اللغة العربية.

تكشف الدراسة عن أن مفهوم الوحي في الكتب الرصاصية يركز على صحف إبراهيم، والزبور، والتوراة، والإنجيل، وحقيقة الإنجيل. ويرى المؤلفان أن هذه هي نفس الطريقة المتبعة في القرآن، وأن العنصر المركزي في العقيدة هو نور الله، الذي يتمثل في جميع أشكال الوحي، الذي كان موجودًا قبل الخلق. كذلك، يؤكدان على أن هذا دليل على الرسالة الشاملة ذات الطابع الصوفي التي تنطوي عليها الكتب الرصاصية. أما فكرة تحريف الإنجيل فهي أقل وضوحًا فيها، لكن مؤلفي الكتب الرصاصية لا يقدمونه على أنه كتاب كامل من حيث النص، فالكمال يُنسب حصريًا إلى جوهر الإنجيل أي، بعبارة أخرى، إلى روح عقيدة الإسلام المتمثلة في الوحي. و بهذا تُظهر الرؤية العامة لرواية الكتب الرصاصية أنها، رغم تقديمها صيغةً محسّنة من المسيحية، تشير ضمنًا إلى أن الدين الكامل هو الإسلام.

وبناء على ذلك، تؤكد الدراسة على أن مؤلف/ مؤلفي هذه الكتب الرصاصية كان/ كانوا ضليعًا/ ضليعين في فهم ودراسة القرآن الكريم والتصوف الإسلامي، دون إظهار أي اهتمام يُذكر بالفقه الإسلامي، أو أي إلمام به – وهذا ما يتماشى مع وضعية الموريسكيين الذين عاشوا إسلامًا باطنيًا –، بينما تبرز عناصر صوفية مثل نبوة مريم، والدور الكوني لحقيقة الإنجيل، واللوح المحفوظ، وغيرها من المفاهيم الغيبية.

بشكل عام، يمثل الكتاب – المتاح مجانا على موقع الناشر الإلكتروني – إضافة قيمة إلى تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية في فترة ما بعد الاسترداد، وللصراعات الدينية وصراعات الهوية الثقافية التي تميزت بها تلك المرحلة. ويعتبر مرجعًا مهمًا للباحثين في التاريخ الإسباني والأوروبي، وتاريخ الموريسكيين، والدراسات الإسلامية المسيحية، وكل من يهتم بتداخل الأديان والثقافات في العصور الحديثة المبكرة.

عمرو رياض
جامعة لوفان KU Leuven – بلجيكا

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net